آفاق المعرفة

٢٦٩

الألوان.. دلالات ومَعان

علاء الدين حسن *

سر من أسرار الله.. نعمة أسبغها الخالق على الوجود.. نور للبصر وسرور للذات.. بها يزدهر الكون.. ومعها ينساب الخيال إلى إشراق دون منتهى.. قوة موحية.. راحة للنفس مسترسلة..

بلاغة الطبيعة:

بلاغة الطبيعة هي الألوان.. لغة الحياة وأحد دروب المعرفة.. ولو تصوَّرنا العالم من حولنا دون ألوان؛ لرأيناه مثيراً للكآبة.. فاللون مصدر الجمال، والمرء حيثما اتجه يرى أمامه الألوان تتجسد في زرقة السماء والبحر وخضرة الأشجار..

---

* باحث سوري

- العمل الفني: الفنان علي الكفري



لقد طالت الألــوان جميع جوانب الحياة بما تحمل من رموز ودلالات حتى دخلت عالم الطب.. فالثمر والجبال والناس والدواب، كل ذلك بألوان مختلفة، مما يدعو إلى التأمل بدقة: «**ومــن آياته خلْقُ السموات والأرض واختلاف ألسنتكـم وألوانكم..**»الــروم:٢٢. ومما يدعو إلى العظة البالغة قوله تعالى: «**شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس**» النحل:٦٩.

والألــوان تتناغم وتتناسق.. هي -بحسب أرسطــو- عناصر الوجود. ويقــول دافنشي: أول الألــوان هو البياض الــذي من دونه لا تكــون الرؤيــة، والأصفر للتربــة، والأخضر للمــاء، والأزرق للفضــاء، والأحمــر للنــار، والأسود للظلام. ويقول نيوتن: كل الألوان في الأبيض.

وثمــة صلة بين اللــون والضــوء؛ فرؤية الألوان تستحيــل في الأماكن المظلمة. واللون نتيجة لظاهرة الطيــف الضوئي ذي الألوان السبعة. والأحمر مــن الطيف موجته أطول مــن البرتقالي، والبرتقــالي موجته أطول من الأصفر.. وهكذا.. وسرعــة الألوان واحدة: ٣٠٠ ألــف كلم/ثــا. والألوان التــي تواترها أقل من تواتر الأحمــر تسمى: الأشعة تحت الحمــراء. والتــي تواترهــا أكبر مــن تواتر البنفسجي تسمى: الأشعة فوق البنفسجية.

وعندما يمر الضــوء عبر قطرة ماء فإنه ينحني ويتكون الانكسار الضوئي ويظهر قوس الرحمة.

معانٍ إيحائية:

فالأخضر يوحي بالعطاء: «**ويلبسون ثياباً خضــراً مــن سندس وإستــبرق**» الكهــف:٣١. ومــن الشجــر الأخضر جعل الله لنــا النار. والأصفــر يدل على الكمال: «**ثـم يهيج فتراه مصفَّراً**»الزمــر:٢١. والأرجــواني يدل على الاستقــرار والأبيض لون رداء الإحرام، ومن غرائــب الطبيعة: الليــالي البيضــ، وهي: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهــر قمري، وفيها تصبح الليالي بيضاء؛ لاكتمال القمر. أما الحجــر الأسود فهو من أعرق التسميات. والأسود لا يعكس أي ضوء؛ لأنه يمتصــ كل الألوان، وهــو رمز الحزن. ويــوم القيامة يحشر المجرمــون زرق العيون (عميــاً) لشدة الفــزع. والأزرق لون الغلاف الجــوي، والماء في البحــار والمحيطات أزرق؛ لانعكاس لون هذا الغلاف.

والأحمر صفــة الدفء، وهو حب حارق.

«ومن الجبال جُددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها» فاطر:٢٧.



وثمة بحران: الأبيض (شمال أوروبا)؛ لأن مياهه بيضاء معظم السنة، والأبيض المتوسط؛ لكثافة السحب البيضاء في سمائه. أما الأحمر؛ فلوجود المرجان الأحمر في مياهه، والأسود بسبب الغيوم السوداء في سمائه. والبيت الأبيض؛ لأنه يصبغ بالأبيض. والموت الأسود هو الطاعون، أما الحمى الصفراء فهي من أمراض الحِجْر الصحي.

ميزات وأنسنة:

تذهب نزعة أنسنة الطبيعة إلى منح الألوان رموزاً محددة.. فالبنفسجي تأمل وتفكير، والأخضر خصب دائم، والأزرق حركة وتواصل، والرمادي حذر وكتمان وقد يكون محايداً في بعض الأحيان، والأبيض براءة ونقاء.واليد البيضاء هي المعطاءة. والأسود خوف وترقب. وقد هيمن اللون القاتم على أعمال ليوناردو، واستحوذ البني على فان كوخ، وبراغ كان مأخوذاً بالأزرق؛ ذلك لضرورات بيولوجية.

عمى الألوان:

هو عيب بصري قد يصل إلى الفقدان

التــام، وسببه الوراثة بالدرجــة الأولى، ومن ثم إصابة العصب البصري بالتهاب أو تسمم بالتبــغ والكحول. وقد لا يميز كبار السن بين بعض الألوان. وهــذا المرض يصيب الرجال أكثر، ليســ له علاج حتــى الآن، مما ينبغي علــى المصاب أن يتكيف مــع الحالة ويكتفي بما قدِّر له. والوقايــة مطلوبة من السائقين المصابين؛ لسلامة القيادة أمام الإشارات.

التداوي بالألوان:

إنَّ كل لون له طاقة وتأثير على المريض؛ فالأخضر لإزالــة الإجهاد والتوتر وهو مريح للنظــر، والبنفسجي لتهدئــة الأعصاب وقد يوحــي بالأســى أحيانــاً، والأزرق لتخفيف الصــداع وهو يرتبــط بالــولاء. والفيروزي للسكــن والاستقرار وتجــدد النشاط، وفوق البنفسجي له ضرر عل القلب والرئتين وقاتل لبعضــ الجراثيم. والنيلــي منشط للذاكرة. والزهــري له تأثــير في الأعصــاب الثائرة. والبنــي يــؤدي إلى العزلة. والأحمــر يعمّق العاطفة ويثير الشجاعــة والشدة، والأصفر يرتبط بالضــوء ويطلق على الذهب الأصفر ويرتبط بالشمس، والأسود خوف من المجهول: «ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلف ألوانه» فاطــر: ٢٨. واستخدم فيثاغور الضوء الملون في المداواة منذ أكثر من ٢٥٠٠عام.

وأثبــت العلم أن للألوان قــوة تتحكم في سلــوك الإنســان؛ فالمتفائل ينظــر بمنظار وردي، والمتشائم ينظر بمنظار أسود. والهالة الشعاعيــة ما هي إلا بارومتر يقيس لنا مدى قدرة الجسم على تحقيق التوازن.

كمــا أن الكثير من الحيوانات تأخذ اللون الملائــم للبيئــة المحيطة بهــا؛ فالنحل يميز الأخضــر أكثر مــن الإنســان، والهر يرى في العتمة، والصقر يرى في ضوء الشمس، والثور لديه عمى الألوان. ومعظم الحيوانات لديها عمى تجاه الأزرق.

الألوان والتراث:

إنَّ ظاهرة الألوان في التراث ظاهرة تلفت النظر، ومن قديم بدت الصورة الجمالية في هذا التضــاد الرائع بين البياض والسواد في القصيدة اليتيمة لـ: دوقلة المنبجي:

الـوجـه مـثـل الـصـبـح مـبـيَّـض
والـشـعـر مـثـل الـلـيـل مـسـودُّ
ضـدان لـمـا اسـتـجـمـعـا حَـسُـنـا
والـضـدُّ يـظـهـر حـسـنـه الـضـدُّ

وثمة بيان جميل للشاعر العباسي المغمور ماني الموسوس يقول فيه:

نشرتْ عذائر شعرها لتُظلّني
خوف العيون من الوشاة الرُّمَّق
فكأنه وكأنها وكأنني
صبحان باتا تحت ليل مطبق

وهذان البيتان من أروع ما قيل في الشعر العربي؛ حيث وصل الشاعر إلى ذروة الخيال قد لا نقدر على استحضارها، وما ذلك إلا نتيجة الإشراق وضده.

ويقول عمرو بن كلثوم:

بأنَّا نورد الرايات بيضاً
ونصدرهنَّ حمراً قد رَوينا

فالرايات البيضاء رمز النقاء والصفاء الذي لا يلبث أن يخالط الأحمر الذي يرمز إلى الدماء والحياة والشباب.

ويقول الوأواء الدمشقي:

فاستمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً وعضَّت على العنَّاب بالبرَدِ

ومع التقدم الحضاري أخذت أهمية الألوان تتنامى، ففي المناسبات السارة يهدى الورد الأبيض. ومن التقاليد الاجتماعية أن ترتدي العروس حلة بيضاء، في حين يظهر الزوج بزي قاتم. واصطلحت حركة السير على الأخضر والأحمر والأصفر، وهذه الألوان الثلاثة الوحيدة التي تنتهي بحرف الراء من بين الألوان.

أخيراً: يبقى هذا التنوع الإبداعي للمنظور في ساحة الكون والسماء والعالم والحياة؛ يبقى لينطبع على الحس البشري بألف حال وحال.. يبقى أحد المنح الإلهية التي ما لها من نفاذ.

المراجع

١- رسالة الألوان- ابن حزم الأندلسي.
٢- الألوان في القرآن- عبد المنعم الهاشمي.
٣- الرسم بالكلمات- ناديا سلطان- مجلة الفيصل- العدد ٢٣٧.
٤- الألوان تقول.. فايزة حسن- المرجع السابق- شعبان ١٤٢٣هـ.
٥- معجزة الألوان- غسان سلوم- العدد ٦١ من نهج الإسلام.
٦- الألوان والناس- عمر دقاق- العربي- العدد٣٠٢.
٧- معاني الألوان- أحمد عبد الكريم- مجلة القافلة- ديسمبر ١٩٩٧م.
٨- معالم قرآنية.. أحمد عبد الرحيم- السابق- جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ.
٩- مرآة البهجة والحزن- جليل عطية- مجلة العربي- فبراير ٢٠٠٥م.
١٠-عمى الألوان- دون اسم- صحيفة الثورة- ٨ تموز ٢٠٠٢م.